كتابات معاصرة 113

فنون وعلوم

مجلة الإبداع والعلوم الإنسانية



بعض ما في العدد 113:

- الفن واستعادة معنى الحياة المشتركة
- هايدغر: الأنطولوجيا بصفتها فينومينولوجيا
- جاك دريدا والفلسفة التفكيكية
- فريدريك وورم: ليڤيناس ميزان العاصفة
- سؤال الهوية المرآة المكسورة (أرق الروح ليمنى العيد)
- النقد ونقد النقد (الجابري وجورج طرابيشي)

المحتويات

كتابات معاصرة 113

■ **نبض الكتابة/ القارئ والقراءة والمترجم أين**

■ **فنون وعلوم:**

مخطوطات دو سوسور في اللسانيات العامة

في هذا المقال الموجز، يلمح الجزائري د. مختار زواوي إلى جملة من التحولات الجديدة في البحث في فكر فرديناند دو سوسير اللساني، ويومئ إلى عدد من الأسئلة النظرية التي أفرزتها منجزات الفيلولوجيات السوسيرية الأخيرة. لقد تجاوزت هذه الفيلولوجيات مرحلة تخليص البحث اللساني المعاصر من سطوة كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إلى دو سوسير، وراحت بعد ذلك تبني من جديد نسق دو سوسير الفكري بتمحيصه مما نسب إليه من تصورات، ولا تبغي عن مخطوطاته وما ألقاه حقا من دروس بديلا ولا منفذا إليه سواها. إن الفيلولوجيات السوسيرية، والتكوينيات النصية، والسيميولوجيات الفرنسية، والسيميائيات وعلوم الثقافة، أسهمت، وما تزال، في تحقيق مشروع دو سوسير الفكري بعد التحول به من لسانيات اللسان إلى لسانيات الكلام، ومن النسق اللساني إلى الفرد المتكلم، ومن اللسانيات بوصفها علما بنويا إلى وصفها علما إنسانيا. لقد محصت هذه البحوث أسلوب دو سوسير العلمي الفريد وأزالت عنه وصفات شارل بالي وألبير سشهاي اللذين أخرجا كتاب المحاضرات، وأبصرت في مخطوطاته آليات كتابية جديدة ليس للباحثين المحدثين عهد بها، فقد كان دو سوسير غالبا ما يمحي، لكن المخطوطات هذه احتفظت بآثار المحو الذي مارسه، وكشفت في الآن ذاته عن أشياء من فكره لا يمكن التحقق منها، مثلا، في كتاباته التي نشرت، مستوفاة للمعايير المطبعية المعاصرة.

كانت الترجمات العربية لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة (CLG)1، في ثمانينيات القرن الماضي، حدثا بارزا في مسار التلقي العربي لفكر دو سوسير لكنّها، على الرغم من الفائدة التي قدمتها للقارئ العربي بإطلاعه على أهم منجزات الفكر اللساني وتعريفه بالمصدر المؤسس للسانيات الحديثة، حالت دون الإلمام بالخصائص العلمية للخطاب السوسيري، وأغفلت عنه جانبا هاما من أسلوبه الفكري الفريد. لقد كانت هذه الترجمات، شأنها شأن عدد من الترجمات الأجنبية لكتاب المحاضرات، متأخرة عما حققته الفيلولوجيات السوسيرية منذ أن نشر روبار غوادل أولى مخطوطات دو سوسير، عام 19542، وإصداره سنوات قليلة بعد ذلك كتاب الأصول المخطوطة لكتاب المحاضرات الذي تناول فيه تحليل عدد من كراسات الطلبة الذين دونوا عن دو سوسير دروسه التي ألقاها ما بين سنتي 1907 و1911، بجامعة جنيف، في اللسانيات العامة3. وعلى الرغم من أن روبار غودال أنصف إلى حد ما، في هذا الكتاب، أستاذيه شارل بالي وألبير سشهاي، إلا أنه ألمح في كثير من ...

الخلل والاضطراب اللذين شابا كتاب المحاضرات، جراء عجزهما عن التعبير عن فكر دو سوسير تعبيرا سديدا. ولم تقتصر هذه الترجمات، وكثير من البحوث اللسانية العربية التي استندت إليها، على جهل ما كان حُقق آنذاك من مخطوطات دو سوسير ونشر، بل تجاهلت أيضا الطبعتين النقديتين لكتاب المحاضرات اللتين أخرجهما رودلف آنغلر (1968)4، (1974)5 وتيليو دو مورو (1972)6، وهما تُعتبران من بين أهم منجزات الفيلولوجيات السوسيرية، لما تحتويان عليه من تصويبات جمة وتوجيهات سديدة لجملة من التناقضات والاختلافات التي مست أهم المفاهيم السوسيرية في اللسانيات العامة، لاسيما ما بات يعرف بالثنائيات اللسانية، وما تشتملان عليه أيضا من نصوص سوسيرية أصيلة لم يكن للبحث اللساني عهد بها.

إن نشر روبار غودال عام 1954 لنصوص دو سوسير المخطوطة يُعد في نظر المؤرخين للفيلولوجيات السوسيرية نواتها الأولى، لكن مكتبة جنيف اغتنت في ...

أودع بها رايموند وجاك، ابني دو سوسير، في عام 1958، مجموعة منها. ولقد كان روبار غودال الذي عمل على توثيق هذه المخطوطات وترتيبها إلى جانب المخطوطات الأولى، لاحظ أيضا بأن شارل بالي وألبير سشهاي كانا قد اطلعا على عدد من هذه المخطوطات المتناثرة؛ وكتب حينذاك: « لقد تلقت المكتبة خلال عام 1958 من السيدين رايموند وجاك دو سوسير صندوقين يحتويان على مجموعة من المخطوطات التي عثر عليها [...]. لقد طالع ناشرا كتاب المحاضرات هذه النصوص، إذ ما يزال يحتوي عدد منها، في أعلى الصفحة، على اليسار، إشارة بخط يد بالي، لكنهما، لعجزهما عن ترتيب هذه النصوص، عزفا عن مواصلة الانتقاء، ولم يستملا إلا ما نسخ سشهاي منها »7. ولئن كان من الطبيعي أن تظل هذه الفيلولوجيات مركزة اجتهاداتها على مضامين كتاب المحاضرات، ويظل هذا الكتاب، لعقود متوالية المنفذ الرئيس لفكر دو سوسير اللساني، حتى حجبت هذه الاهتمامات كل اجتهادات دو سوسير الأخرى التي كانت تصنف آنذاك في دائرة النحو المقارن أو في دائرة اللسانيات التاريخية، إلا أن ما حققت البحوث الفيلولوجية الأخيرة، منذ مطلع هذا القرن الجديد، جدير بالاهتمام، فقد مكّن تحقيق كتابات دو سوسير في اللسانيات العامة ونشرها عام 2002 من قبل سيمون بوكي ورودلف آنغلر8، وتحقيق عدد من الدروس التي ألقاها دو سوسير ابتداء من عام 1891 في النحو المقارن، بعد عودته من باريس، ونشرها عام 2018 من قبل أندري روسو9، من تجاوز التصور التقليدي لعدد من الباحثين في فكر دو سوسير الفاصل بين بحوثه في اللسانيات التاريخية المقارنة (أو النحو المقارن) وبحوثه في اللسانيات العامة، وهو فصل يكاد ينسجم، في نظرهم، مع الفصل بين مرحلة باريس (1880-1891) التي قضى بها دو سوسير عشرة أعوام طالبا للعلم ثم أستاذا بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا، بعدما باءت بالفشل كل الجهود لإقناعه بالعدول عن مغادرة باريس والقبول بالجنسية الفرنسية قصد الحصول على منصب عمل دائم وبين مرحلة جنيف التي تبدأ بعام 1891 وتنتهي بالسنة الجامعية (1912-1911). لكن باحثين آخرين ردّوا هذا التقسيم معترضين بالقول بأن المقارنة ما كانت يوما ما الغاية التي كان يرومها دو سوسير، بل إنه ما انفك يجتهد في سبيل تجاوز المقارنة واتخاذها وسيلة لبلوغ الأسس العامة، والتحقق من طبيعة الظاهرة اللغوية10.



إن مشروعا لإعادة قراءة فكر دو سوسير اللساني لا مناص له من إعادة الصلة من جديد بالفيلولوجيات السوسيرية، ولسنا نغالي لو زعمنا أن الفكرة هذه تُعدّ من بين أهم منجزات الفيلولوجيات السوسيرية، وهي تعبر في نظرنا عن أصالة الفكر السوسيري، وعن السعي الدائم الذي بذله دو سوسير في سبيل وضع علم اللسانيات الناشئ آنذاك على أسس علمية، إبستيمولوجية، ومنهجية، قويمة، والنأي به عن ممارسات النحو المقارن (أو اللسانيات التاريخية) التي ركنت إلى طريقة في المقارنة لم تُعمل فيها مفهوم النسق اللساني، وراحت بدلا من ذلك تبحث عن التقابلات بين الأشكال اللسانية المنتمية إلى ألسن مختلفة. لقد أبرزت الفيلولوجيات السوسيرية أن موقف دو سوسير من هذه الممارسات، وإحلاله محل الطريقة المقارنة السائدة طريقةً جديدة، أصيلة، تراعي فيها فردانية الألسن، ويُعمَل فيها مفهوم النسق، موقفٌ يبلور أولى المبادئ العامة التي بدأت تتشكل بها معالم لسانياته العامة. ولا يقتصر فضل الفيلولوجيات السوسيرية علينا نحن جيل السوسيريين الجدد بانخراطنا في معاودة النظر في فكر دو سوسير الأصيل من خلال معاينة مخطوطاته

الأصيلة التي ما تزال تحقق، وتنشر تباعا، بل قادتنا أيضا إلى معاودة النظر في تاريخ الأفكار اللسانية الحديث، والتحقق من الطرق التي سلكها العلم الحديث والمعاصر في تلقيه. ولقد رحنا في الشهور القليلة الأخيرة، موازاة مع ترجمة كتابات دو سوسير في اللسانيات العامة، ننظر في تلقي سيميولوجيات رولان بارت وسيميولوجيات لويس بريتو، فوجدناهما لا ينهلان من كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إلى دو سوسير كما كنا نعتقد، وكما كان حال كثير من الباحثين العرب قبلنا، بل إنهما نظرا في فكر دو سوسير من خلال مخطوطاته التي حققها روبار غوادل ونشرها عامي 1954 و1957.

لقد كشفت هذه المخطوطات للباحثين في فكر دو سوسير عن أسلوب تحريري علمي فريد يختلف كل الاختلاف عما سوّق له كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إلى دو سوسير، واحتفظت الآثار الواضحة للمحو الذي مارسه دو سوسير في كتاباته بطبيعة تكوين فكره، وأسلوبه في التفكير والنظر في طبيعة الوقائع اللسانية. فهذا الفكر، فكر دو سوسير اللساناتي، فكر قلق، يعاود النظر في الأفكار حتى يطمئن إلى صياغتها الأخيرة، وينتهج منهج الفقرات الصغار في تأليفها، وكأني بها جزرا ترامت في بحر عميق من التأمل والتبصر في طبيعة اللغة الإنسانية، والألسن البشرية، لكنها جزر لا تكاد تنفصل عن بعضها بعض تماما حتى تدرك يسر الانتقال من إحداهن إلى أخرى، وتجد نفسك منساقا إلى إعادة النظر من جديد في ما قرأت من قبل. إن انتهاج فرديناند دو سوسير للكتابة المجزأة « écriture fragmentaire » في مخطوطاته يبدو أنه ناتج عن طبيعة الموضوع ذاته، لأن المدخل إلى علم اللغة والألسن ليس له باب واحد، ولا منفذ وحيد، ولقد أعلن عن هذه الحقيقة منذ الصفحة الأولى من كتاب في جوهري اللغة بقوله: « يبدو في الواقع مستحيلا، في اللسانيات، تفضيل إحدى الحقائق على غيرها حتى تغدو المنطلق الأوّل، لكن ثمة حقائق أساسية، خمس أو ست، متصلة فيما بينها اتصالا وثيقا بحيث يحسن البدء بأي منهن فنصل منطقيا إلى الأخريات، ونصل إلى كل النتائج نفسها كما لو بدئنا بأي حقيقة أخرى »11. كما إن انتهاج هذا النمط من الكتابة باد في معاودته المستمرة في صياغة الفكرة الواحدة صياغات متعددة، تنم عن فكر قلق، شاك، لا يركن إلى الوقائع اللسانية التي تبدو حقائق حتى تُمحص معالمها تمحيصا وتستنفد مكنوناتها استنفاذا.

ويعبّر المحو في هذه الحالة عن المراجعة والعدول عن السالف من القول، وهو في غالب أمره، لاسيما في الثقافات الشفوية، يمّحي بدوره حين يمارس وظيفة المحو، خلافا للمخطوط من القول الذي كثيرا ما يحتفظ بآثار واضحة للمحو، تمثلها الشطوب التي يتنازل بها الكاتب عن الفكرة في سبيل الأخرى، أو بالكلمة عن الأخرى، أو بالفقرة كلها لتحل محلها فقرة أخرى. إن المحو في أغلب أحواله محو بان، وهو على هذا النحو بارز في المخطوطة التي أطلق عليها الباحثون ملحوظة « alka »، وهي تتألف من 16 ورقة، يرجح أن دو سوسير حررّها خلال عام 1896، وهي المخطوطة الذي استند إليها لويس بريتو في التأسيس لسيميولوجياته. وفي هذه المخطوطة، مثلها كمثل عدد كبير من مخطوطات دو سوسير، تتواشج الكتابة اللسانية بالتفكير اللساني، فهي ما تزال تحتفظ بالآثار التي خلّفتها المسالك التي سلكها التفكير السوسيري في سبيل تبيان الفكرة التي رام التعبير عنها، فيبقي منها على الفقرات التي رضي عنها، ويشطب تلك التي لم يرتضيها. كما إن هذه المخطوطات تختزن من الجمل والعبارات ما يدُل على البرامج الحجاجية12، التي تسير التفكير، كتلك التي استخرجتها كلودين ميجيا من هذه المخطوطات: « يجب الاسترسال »، « يجب دراسة كلمة التعبير »، « توضيح أن مصطلح عبارة شأنه شأن مصطلح علامة، لم يكن ليحتفظ بدلالة مادية أو عكس ذلك »، « الانتباه إلى »، « النظر في شأن المقارنة التكتيكية »، « ولكن ليس ذلك ما كنت أنوي قوله، لقد انحرفت »، « إن الغريب في الأمر »، « هل هذا الاختلاف مبرر؟ »13، وغيرها من العبارات التي تعبر عن مساءلة الفكر لنفسه مساءلة متواترة، تنم عن طريقة تفكير واع بصعوبة التعبير عن الوقائع اللسانية.

إن هذه العبارات التي تتخلل مخطوطات دو سوسير، وتسهم في توجيه تفكيره اللساني، ليست المؤشرات الوحيدة الدالة على الفوارق الخطابية التي باتت تميز كتابات دو سوسير الأصلية عن كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة أو كراسات طلبته الذين دونوا عنه خلاصة تفكيره، فالشطوب تعبر هي الأخرى عن حالة من وعي التفكير بذاته، فلا يرضى التدبر العلمي في المسألة المنظور فيها من الفقرات أو العبارات أو الكلمات إلا إذا

ما اتسق منها وفق برنامج حجاجي واضح، وإلا كانت مصيرها المحو، كما هو حال الفقرة الأولى من المخطوط الذي يعنينا ههنا، أي ملحوظة « alka »، فهي تبرز مشطوبة بخط عمودي مائل قليلا إلى اليمين، يتبعها إلى الأسفل خط أفقي قصير دال هو الآخر على تغيير محل الابتداء منها إلى الفقرة التي تليها. لكن الشطوب ليست في كل أحوالها مواد علمية يستغنى عنها الباحث اليوم كما استغنى عنها دو سوسير بالأمس من باب المعلوم عنده بالضرورة، فهي فضلا عن انتمائها إلى مسار سردي (معدل ومحيّن)، تعد اليوم، هي الأخرى، أصلا من أصول التفكير السوسيري.

إن الشطوب التي ما تزال تحتفظ بها مخطوطات دو سوسير ليست خصيصة للنصوص في اللسانيات العامة، بل إن الفكر السوسيري لطبيعة القلقة، التي لا تركن إلى لما هو أجود، مارس المحو أيضا في تجاربه الأخرى مع نصوص أخرى، وهي فضلا عن تفسيرها لطبيعة الأسلوب الحجاجي للفكر السوسيري، تمكن الباحث المعاصر من فهم النشأة الأولى للمفاهيم والتصورات السوسيرية، وفي هذا الشأن، لاحظ جون ستروبنسكي، وهو يقدم كتاب « الكلمات تحت الكلمات » الذي خصصه لجناسات دو سوسير، آثارا كثيرة للمحو في كراسات دو سوسير التي حققها، وعلّق على إحدى هذه الشطوب قائلا: « إن من بين هذه الشطوب لذو دلالة مميزة، ويتعلق الأمر ههنا بكلمة التيمة، فقد كان دو سوسير استعمل أوّل الأمر ملحها كلمة النص، لكنه محاها واستعاض عنها بكلمة التيمة »14، ثم ينتهي إلى القول: « لقد فكّر دو سوسير إذن في نص تحت النص، أو في ما قبل النص، بمعنى التام الكلمة »15. ولسنا نعجب بعد الآن إلى التسمية التي ارتضاها جون ستروبنسكي لتجربة دو سوسير مع الجناسات، « نص تحت النص »، وهي العبارة التي بات يتداولها الباحثون من بعده.

لم يكن لكتاب الأصول المخطوطة لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، على الرغم من الأهمية الكبرى التي ينطوي عليها في فهم فكر دو سوسير الفهم السديد، التأثير البليغ في أدبيات اللسانيات في النصف الثاني من القرن العشرين، وعلى الرغم كذلك من التقارير التي رافقت، أو تلت نشره، عام 1957. ولكن آن لنا الآن أن نستثني من هذا الحكم تأثيره في أدبيات السيميولوجيات،

وبعبارة أخرى، فإن الفيلولوجيات السوسيرية كان لها في دائرة السيميولوجيات، لاسيما الفرنسية منها، تأثير مباشر، إذ إن سيميولوجيات لويس بريتو وسيميولوجيات رولان بارت استندتا إليها قصد التقعيد لتصوراتهما. أما لويس بريتو فقد استند إلى مخطوطة من مخطوطات دو سوسير التي حققها غودال ونشرها عام 1954، ضمن مجموعة المخطوطات التي أشرنا إليها سالفا، فكتبت كلوديا ميجيا قائلة: « شرع روبار غودال في نشر مسودات دو سوسير ضمن مجلة كراسات فرديناند دو سوسير، ونشر، على وجه الخصوص، ملحوظة « alka » ضمن العدد الثاني عشر من المجلة (1954)، وتناولها بتحليل مفصّل في أطروحته لعام 1957. لقد قرأ لويس بريتو هذه المنشورات وأعد عنها تقريرا لقراء مجلة « Word » (المجلد الرابع عشر). لقد كان بريتو ترجم كتاب تروبتسكوي، مبادئ في الفونولوجيات، وكان قارئا متمرسا لكتاب بويسنز، اللغات والخطابات، وإن ملحوظة « alka » هي التي كانت مكنته من الربط، على المستوى الإبستيمولوجي، بين مشروع تروبتسكوي الفونولوجي وسيميولوجيات بويسنز، وهو مستوى الرهانُ الأساسي فيه هو الإطار النظري للعلوم الإنسانية »16.

وأما رولان بارت فقد كانت دروس السنة الثانية (1909-1908) التي ألقاها دو سوسير في اللسانيات العامة والتي حققها أيضا روبار غودال ونشرها عام 195717،



أي مباشرة بعد نشر أطروحته، المصدر الرئيس الذي نهل منه أولى تصوراته السيميولوجية، لاسيما مبادئه في السيميولوجيات التي نشرها عام 1964، ضمن العدد الرابع من مجلة « Communications » الفرنسية18، وهو العدد الذي اقترح في رولان بارت، في تقديمه له، تعريفا للسيميولوجيات، قائلا: « إن الدلالة التي ترتضيها لمصطلح السيميولوجيات، ونتعامل بها نحن الأوروبيون، تعود إلى فرديناند دو سوسير، أي بمعنى العلم الذي يدرس حياة العلامات ضمن الحياة الاجتماعية. ويمكننا القول من وجهة نظر استشرافية، إذ إن العلم ليس مؤسسا بعدُ، أن السيميولوجيات موضوعها كل نسق من العلامات، مهما كانت مادته، ومهما كانت حدوده: إن الصور، والحركات، والأصوات الموزونة، وأشياء هذه المواد وتركيباتها التي نصادفها في الطقوس والبروتوكولات، والعروض، إن لم تكن كلّها عبارة عن لغات فهي على الأقل أنساق دلالية. لقد بات أكيدا أن تطور وسائل التواصل الاجتماعي أضحى اليوم يضفي على هذا الحقل المتنامي من الدلالة راهنية كبرى (مع التوكيد على ضرورة التمييز بين التواصل والدلالة)، في الوقت الذي بات فيه نجاح عدد من المواد العلمية كاللسانيات، ونظرية الإعلام، والمنطق الصوري، والأنتروبولوجيات البنوية، يوفر للتحليل الدلالي وسائل جديدة »19.

وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى الثراء المعرفي الذي تتماز به مخطوطات دو سوسير عن كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إليه، ويكفي الباحث الإشادة بها بالتوكيد على إثراء هذه المخطوطات لتوجهين رئيسين في دائرة السيميولوجيات الفرنسية، ونعني بهما سيميولوجيات الدلالة التي انتهجها رولان بارت وسيميولوجيات التواصل التي عمل على بلورتها وردّ النقود عنها، « إن أهمية سيميولوجيات التواصل لا تنجم، على نحو ما اعتقده رولان بارت، أو لا تنجم فقط، عن أهمية وسائل التواصل غير اللسانية. إن أهميتها تبرز من حيث إن اعتبار الوقائع التواصلية في جملتها هي التي تحدد وحدها سبب وجود آليات اللسان وخصوصيتها، ومن ثم، القدرة على تفسير الدور الرئيس الذي تضطلع به في تشكيل الفرد وفي حياة الأفراد الجماعية »20.

لقد كانت كلوديا ميجيا في اعتقادنا هي الباحثة الأولى التي أدركت الصلة بين الفيلولوجيات السوسيرية وسيميولوجيات لويس بريتو21، فقد انتهت في المقال الذي خصصته لتحليل ملحوظة دو سوسير « Alka » التي ألمحنا إليها قبل قليل، الصادر ضمن العدد الخمسين من عام 1997 من مجلة كراسات فرديناند دو سوسير، إلى القول: « لقد كتب دو سوسير الملحوظة « Alka » حوالي عام 1896، وإن بريتو استطاع أن يحل الفرد المتكلم المحل الذي يحق به، من خلال الربط، على المستوى العام، بين الملاءمة والممارسة، وقد ميّز، فضلا عن ذلك، انطلاقا من التمفصل المزدوج، بين البنية التقابلية والبنية السيميائية، واقترح إطارا نظريا للسانيات بوصفها علما إنسانيا »22. إن الصلة التي استكشفتها كلوديا ميخيا بين فكر دو سوسير الأصيل، عن طريق الفيلولوجيات التي أتاحت للباحثين الولوج إليه من خلال تحقيق مخطوطاته الأصلية، وبين سيميولوجيات لويس بريتو، ينطوي على إقرار على راهنية هذه الأخيرة، وهي الراهنية التي عبر عنها أيضا أمبرتو إيكو عام 2007، حين كتب قائلا: « إنني أوصي اليوم بإعادة قراءة كتاب لويس بريتو، وهو شأنه شأن كتابات الأخرى، يبدو لي أن كان المبشر لكثير من النظريات وكثير من وجهات النظر التي عُبر عنها من بعد »23.

وليست راهنية سيميولوجيات لويس بريتو بأحق بالتوكيد من راهنية سيميولوجيات رولان بارت، فقد استقت هي الأخرى من فكر د سوسير الأصيل، بما وفرته لها الفيلولوجيات السوسيرية، الأدوات اللسانية الإجرائية للتأسيس لنفسها، وهو ما ذهبت إليه كلوديا ميخيا عند تحليلها لملحوظة دو سوسير التي تعنينا، بتوكيدها على استناد رولان بارت إلى مقدمة محاضرات السنة الثانية (1908-1909) التي حققها غودال ونشرها، بقولها: « إن محاضرات السنة الثانية هي المحاضرات التي عرض فيها دو سوسير مشروعه السيميولوجي، وإن سيميولوجيات بارت منطلقها مما نشر منها عام 1957 »24. ولعل الناظر في المبادئ في السيميولوجيات لرولان بارت التي نشرها أوّل الأمر عام 1964، ليدرك أوّل ما يدرك عزوف رولان بارت عن كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، إذ لا يجد القارئ ذكرا له، بل إن الصفحات الأولى من المبادئ تحيل كتاب روبار غودال، الأصول المخطوطة لكتاب الحاضرات في اللسانيات العامة، وإننا نرى في هذا العزوف عن كتاب المحاضرات دليلا على وعي رولان بارت بالمسافة النقدية التي باتت تفصل كتاب المحاضرات عن كتاباته الأصلية، وأن جانبا كبيرا من فكره

اللساني والسيميولوجي لم يعثر عنه في هذا الكتاب، فقد أشار بارت في مذكراته إلى هذه المسافة التي باتت تفصل كتاب المحاضرات عن دو سوسير الحقيقي بقوله عن نفسه: « لقد كان يميل إلى العلماء الذين كان يبدو عليهم التوتر، والرجف، والهوس، والهذيان، والعدول، ولئن كان استفاد بشكل كبير من كتاب المحاضرات، إلا أن دو سوسير بات أهم لديه منذ أن تعرف على اشتغاله بالجناسات »25.

ولقد أبرز رولان بارت الأشواط التي قطعها في مشروعه السيميولوجي، بمناسبة تقديمه لكتابه الجامع، المغامرة السيميولوجية، كما أبرز في الآن ذاته مدى تقدم معرفته بفكر دو سوسير الأصيل، أما المرحلة الأولى من مشروعه السيميولوجي فهي مرحلة الميثولوجيات26، التي تبدأ بعام 1956، وهي المرحلة التي تعرّف فيها بارت أوّل الأمر على دو سوسير (من خلال كتاب المحاضرات)، وكانت السيميولوجيات آنذاك بالنسبة إليه مجرد مشروع، كما كانت أيضا على هذا النحو في كتاب المحاضرات. لكن المرحلة الثانية، وهي مرحلة العلم كما يسميها، فإنها تبدأ بعام 1957، تاريخ صدور كتاب الأصول لغودال، ونشر هذا الأخير لمحاضرات السنة الثانية (1909-1908) في اللسانيات العامة لدو سوسير، وهي المرحلة التي عكف فيها بارت على الاشتغال على الموضة27، وعلى بلورة المبادئ في السيميولوجيات. وإننا لو وضعنا كتاب المبادئ هذا في مقابل مقدمة دروس السنة الثانية (1909-1908) في اللسانيات العامة لدو سوسير، لأظهرت لنا المقارنة بين النصين مدى القرابة المفهومية والاصطلاحية التي تجمع بينهما. لكن المقارنة هذه لن تتبع بالضرورة المسارين اللذين سلكهما دو سوسير وبارت في عرض مشروعيهما السيميولوجيين، بقدر ما تعتمد على تتبع آثار المشروع الثاني المستمر للمشروع الأوّل. ولقد ارتبطت السيميولوجيات في بدايات مشروع رولان بارت بالعلاقة الجدلية القائمة بين الدال والمدلول، العنصرين المؤسسين للعلامة، ففي وصفه للأسطورة بوصفها نسقا سيميولوجيا، يقول: « يجب التذكير بأن كل سيميولوجيات تفترض علاقة ما بين عنصرين، دال ومدلول، وإن هذه العلاقة تخص شيئين من نمطين مختلفين، ولأجل ذلك ليس ثمة مساواة أو تكافؤ بين الاثنين. ويجب الحذر من العرف الشائع الذي يقتصر على القول بأن الدال يعبّر عن المدلول، إذ إن الأمر



يتعلق، في كل نسق سيميولوجي بثلاث عناصر وليس اثنين، إن ما أدركه ليس العنصر تلوى الآخر، بل هو التضايف القائم بينهما: ولذلك إن ثمة الدال، والمدلول، والعلامة التي هي الكل الجامع بين العنصرين الأولين »28.

إن البحوث العربية اللسانية المعاصرة يجب أن تتجه، في اعتقادنا، إلى مدارسة النصوص السوسيرية الأصيلة، استئناسا بما حققته الفيلولوجيات السوسيرية من استكشافات أماطت اللثام عن خصائص كانت خفية من فكر دو سوسير اللساني والسيميولوجي (السيميائي)، وهي خصائص لا يمكن تلمسها بأي حال من الأحوال ابتداء من كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إليه. إن تحقيق مخطوطات دو سوسير اللسانية ونشرها أخذ في التنامي في السنوات القليلة الأخيرة،

فمهّد السبيل لمقاربات معاصرة راحت هي الأخرى تختبر آلياتها على النصوص السوسيرية المخطوطة، على نحو ما راحت تفعله التكوينيات النصية « génétique textuelle »، أو علم النص التكويني. وليست التكوينيات النصية هذه وليدة القرن الواحد والعشرين، بل كانت نشأت أثناء سبعينيات القرن الماضي على أعقاب النقد البنوي، وهي ترمي إلى « تجديد المعرفة بالنصوص عن طريق المخطوطات التي احتوت عليها، وتحويل السؤال النقدي من المؤلف إلى الكاتب، ومن النص إلى الكتابة، ومن البنية إلى السيرورة، ومن الأثر الأدبي إلى نشأته التكوينية الأولى »29. وليس التحوّل من هذه التسمية إلى تلك تحوّلا في الاصطلاح بقدر ما هو تحوّل عن النقد التأويلي التقليدي الذي ظل يتمسك بمقاصد الكاتب، وتحوّل عن النقد المقارن الذي ركن إلى استثمار الأساطير في النصوص، كما إنه أيضا تحول عن النقد التيمي، والنقد الفيلولوجي التقليدي30.

ولئن انتهى فرانسوا راستيي في كتابه الأخير عن دو سوسير إلى القول: « يمكننا اليوم قراءة دو سوسير بطريقتين متكاملتين: يمكن للأولى أن تسعى إلى إعادة تشكيل الفكر السوسيري نسبة إلى لسانيات عصره، ويمكن للثانية أن تسهم في تطوير التيارات السوسيرية للسانيات المعاصرة »31، فما حض اللسانيات العربية من كل هذا؟ إننا تجتهد في إعادة بلورة تعريف جديد للسانيات العربية، استئناسا بالمعادلة السوسيرية التي ما انفكت الدراسات السوسيرية الحديثة تتخذها برنامج بحث معاصر، وهي التي عبّر عنها دو سوسير على النحو الآتي: « السيميولوجيات = المورفولوجيات، النحو، التركيبيات، الدلاليات، البلاغة، الأسلوبيات، المعجميات، الخ.، الكل متصل »32، مع التوكيد على أهمية عبارة « الكل متصل » التي تدل على ضرورة عدم الفصل بين مكونات البحث في اللسان العربي، والمبادرة إلى إعادة ترتيب ما اصطلح عليه اللغويون العرب الأوائل بعلوم العربية، من منظور التعاون العلمي « interdisciplinarité » الذي تكاد تفتقد إليه البحوث العربية المعاصرة.

د. مختار زواوي/الجزائر

هوامش ومراجع:

1 - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, publié par C. Bally et A. Sechehaye, avec la collaboration d'A. Riedlinger, Paris, Payot, 1971.

2 - R. Godel, « Notes inédites de F. de Saussure », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 12, 1954, p. 49.

3 - R. Godel, Sources manuscrites du Cours de linguistique générale de F. de Saussure, Genève, Droz, 1957.

4 - F. de Saussure, Cours de linguistique générale de F. de Saussure, tome I, édition critique par R. Engler, Wiesbaden, Harrassowitz, 1968.

5 - F. de Saussure, Cours de linguistique générale de F. de Saussure, tome II : appendice, édition critique par R. Engler, Wiesbaden, Harrassowitz, 1974.

6 - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, publié par C. Bally et A. Sechehaye, avec la collaboration d'A. Riedlinger, édition critique par T. de Mauro, Paris, Payot, 1972.

7 - R. Godel, « Inventaire des manuscrits de F. de Saussure remis à la Bibliothèque Publique et Universitaire de Genève », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 17, 1960, p. 5.

8 - F. de Saussure, Écrits de linguistique générale, texte établi et édité par S. Bouquet et R. Engler, Paris, Gallimard, 2002.

9 - F. de Saussure, La grammaire du gotique, éd. A. Rousseau, Paris, Honoré Champion, 2018.

10 - C. Watkins, « Remarque sur la méthode de Ferdinand de Saussure comparatiste », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 32, 1978, p. 60.

11 رديناند دو سوسير، في جوهري اللغة، تح. سيمون بوكي ورودلف أنغلر، تر. مختار زواوي، بيروت، دار ابن النديم للنشر والتوزيع ودار الروافد الثقافية، 2019، 156.

12 - L. Lundquist, « Cohérence : marqueurs d'orientation argumentative et programme argumentatif, Semantikos, vol. 9, n° 2, 1986, pp. 120-.

13 - Cl. Mejia, « L'aposème, unité de parole », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 52, 1999, p. 238.

14 - J. Starobinski, Les mots sous les mots. Les anagrammes de Ferdinand de Saussure, Paris, Gallimard, 1971, p. 23.

15 - Ibid.

16 - Cl. Mejia, « L'ouvrage d'un philologue artiste », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 58, 2005, p. 9.

17 - F. de Saussure, Cours de linguistique générale (19081909-). Introduction (d'après des notes d'étudiants), éd. R. Godel, Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 15, 1957, pp. 3103-.

18 - R. Barthes, « Éléments de sémiologie », Communications, n° 4, 1964, Recherches sémiologiques, pp. 91135-.

19 - R. Barthes, « Présentation », Communications, n° 4, 1964, p. 1.

20 - L. J. Prieto, « Sémiologie », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 50, 1997, p. 18.

21 - L. J. Prieto, Pertinence et pratique. Essai de sémiologie, Paris, Editions Minuit, 1975.

22 - Cl. Mejia, « Unde Exoriar », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 50, 1997, p. 110.

23 - U. Eco, « La pertinence de Luis Prieto », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 60, 2007, p. 39.

24 - Cl. Mejia, « Unde Exoriar », p. 101, n 14.

25 - R. Barthes par Roland Barthes, Paris, Seuil, 1980, p. 163.

26 - R. Barthes, Mythologies, Paris, Seuil, 1957.

27 - R. Barthes, Système de la mode, Paris, Seuil, 1957.

28 - R. Barthes, Mythologies, p. 185.

29 - P.-M. de Biasi, La génétique des textes, Paris, Nathan, 2000, p. 9.

30 - D. delas, La pensée saussurienne et la génétique des textes littéraires, in S. Bédouret-Larraburu et G. Prignitz, En quoi Saussure peut-il nous aider à penser la littérature ?, Pau, Presses Universitaires de Pau, 2012, p. 97.

31 - F. Rastier, Saussure au futur, Paris, Les Belles Lettres, 2015, p. 203.

32 - فرديناند دو سوسير، في جوهري اللغة، ص، 187.